١ ـ محاورات أفلاطون

معذرة سقراط

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

كان أفلاطون فيلسوفاً فناناً على بعد ما بين الفن والفلسفة ، فقد دون آراءه كلها في أسلوب الحوار الذي بلغ من الدقة والجمال حداً وضعه في أسمى مراتب الفن . ونحن إذ نتقدم الى القراء بهذه الترجمة لمحاوراته ، إنما نلتمس العفو عما قد تصاب به تلك الآيات البينات من تشويه . على أن القارىء إذا فقد جمال الأسلوب فلن تضيع منه باذن الله دقة المعنى وأمانة النقل .

وهذا الحوار الذي نترجمه لك اليوم ، كتبه أفلاطون ليصور به دفاع سقراط عن نفسه يوم محاكمته بتهمة الالحاد وإفساد الشباب . ولسنا ندري الى أي حد تطابق هذه الصورة الأفلاطونية

وعملاً روائياً حقيقياً أصبح الكاتب يضع روايته حراً من كل قيد ، ثم يدفعها الى اللحن فيختار لها فكرة موسيقية تقوى التعبير عن الغرض . وهم اليوم يميلون الى تقليل الحوار وتكثير الغناء ، ورد هذا النوع الى شكل لا يكون معه إلا درامة غنائية وملهاة غنائية لا يدخل فيها ماليس منها حتى لا يقول فيه القائلون اليوم إنه نوع مزيف ، وحتى لا يصفه (تيوفيل جوتييه) « بأنه سفيح قبيح ، قد خلط بين وسيلتين متباينتين من وسائل التعبير ، فجعل الممثلين يغنون الغناء بحجة أنهم ممثلون ، والمغنين يمثلون التمثيل بحجة أنهم مغنون » .

على أنه بالرغم من هذا النقد الوجيه يستحق العناية والتأييد ، لأنه سبب واصل بين ذوق العامة وذوق الخاصة ، ودرج صاعد بالجمهور الى الفن الموسيقي فيرفعه من حضيض (الڤودڤيل) الى أوج (الأبرا) .

وهنا نقف القلم معتقدين أن فيما بسطناه من قواعد الفن الدرامي بلاغاً للكاتب الناشئ وسداً لنقص البيان العربي في هذا الباب

الزيات

الحقيقة الواقعة . هل احتفظ أفلاطون بألفاظ سقراط نفسها أو ما يقرب منها ؟ أم أنشأها إنشاء ليعبر بها عما كان يجب أن يكون من سقراط في دفاعه ؟ أم هي قصة جمعت بين الطرفين ، فأثبتت ما قيل وأضافت اليه ما كان يجب أن يقال ؟ وسواء أكانت هذه أم هذه أم تلك ، فهي على كل حال تصور روح سقراط في الحديث تصويراً دقيقاً ، وتحلل نزعته تحليلا بارعاً ، فلا يسع القارىء وهو يقرأ هذا الحوار الذي دبجته يراعة أفلاطون الا أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه إنما يتلو عبارة تحركت بها نفس سقراط وجرى بها لسانه ؛ فشخصيته بارزة في كل سطر من سطوره بروزاً لا يخطئه النظر ، فأنت ترى لمحات من التهكم اللاذع الذي امتاز به سقراط في حديثه ، وأنت تلاحظ روح التحدي جلية واضحة ، والتحدي طابع معروف في شخصية سقراط . وسنرى كذلك في هذا الحوار تفككاً فلا تتصل أجزاؤه بصلة من منطق قوي ، فكأنما أراد أفلاطون بهذا أن يكون أميناً في الصورة التي يقدمها عن سقراط ؛ فسقراط لم يكن في حياته يعنى بمنطق الحديث . فهو إذا بدأ حواراً مع آخر لا يلبث أن يشذبه باستطراده من ناحية ، وبالأسئلة العرضية التي يطرحها مناقشوه أثناء الحديث من ناحية أخرى ، فيخرج الكلام آخر الأمر ، وليس فيه وحدة تربط أوله بآخره

وقد تعمد أفلاطون في هذا الحوار أن يسوق إلى القارىء أبرز ما حدث لسقراط في حياته ليكون عنه فكرة متصلة ، وقد كان أفلاطون في ذلك قديراً ماهراً ؛ حتى لا يكاد يشعر القارىء أن تلك الحوادث أضيفت إضافة مدبرة ، بل جاءت عفواً كما اقتضى منطق الحديث

يبدأ سقراط في هذا الدفاع ، أو إن شئت تعبيراً دقيقاً فقل يبدأ أفلاطون في دفاعه عن سقراط ، بأن قسم المتهمين الى قسمين : الرأي العام من ناحية ، وطائفة من الأشخاص النابهين من جهة أخرى ؛ ثم يخلص للقضاة نقط الاتهام ، وأخذ يفندها واحدة فواحدة . وعلى الرغم من هذا فقد حكم عليه بالموت . ولما طلب اليه أن يقترح حكما — كما جرت بذلك عادة القضاء الأثيني — لتقف المحكمة موقفاً وسطاً بين الحكمين ، أجاب في تهكم لاذع وحكمة نادرة . وانتهى الأمر وقضى عليه بالموت

* * *

نص الحوار

لست أدرى أيها الأثينيون كيف وقعت من نفوسكم خطب متهمى ، أما أنا فقد أحسست لكلامهم الخلابة أثراً قوياً أنسيت معه نفسى ، وإنهم لم يقولوا من الحق شيئاً . ولشد ما دهشت إذ ساقوا فى غمر باطلهم نذيراً لكم أن تكونوا على حذر فلا يخدعكم قوة فصاحتى . يا خجلتهم مما يزعمون ! فاذا نبست بنبت شفة نهضت لكم دليلاً على عىّ لسانى وافتضح أمرهم ؛ وانهم بذلك عالمون ، ولكنهم يمارون ولا يخجلون . أم تراهم يطلقون الفصاحة على قوة الحق ؟ إذن لأشهدت أنى مصقع بليغ . ألا ما أبعد الفرق بينى وبينهم ! فهم كما أنبأتكم لم ينطقوا كلمة صدق ولم يقولوا الا كذباً ، أما أنا فخذوا الحق منى صراحا ، ولن أصوغها عبارة منمقة كما فعلوا ، ولكنى سأسوق الحديث اليكم عفو ساعته ، ولست أشك فى أنه الحق . فلن أقف يوماً بينكم أيها الأثينيون موقف الخطيب ما دمت حياً ، فلا يرجن الآن أحد منى خطاباً ، ولعلى أظفر منكم بهذا الفضل : إن جاءت فى دفاعى كلمات قلتها من قبل ، وسمعها بعضكم فى الطريق أو عند موائد الصيارفة أو فى أى مكان آخر ، فلا تدهشوا ولا تقاطعوا الحديث ، لأننى أقف — وقد نيفت على السبعين عاماً — للمرة الأولى فى ساحة القانون ، فلم آلف هذا المكان ، ولم أتعود تقاليده وطرائقه ، فانظروا الىّ نظركم الى الغريب تلتمس له المعذرة لو جرى لسانه بلغة قومه ولهجة وطنه . وما أحسبنى بذلك أطلب شططاً ، فدعكم من عبارتى وقبحها ، وانظروا فى عدالة القضية وحدها ، واذا حكم منكم قاض فليحكم بالعدل ، واذا نطق متكلم فلينطق بالحق

ولأبدأ أولاً برد اتهام الطائفة الأولى من المدعين[1] ، ثم أستطرد الى دعوى الفريق الثانى ؛ فلقد اتهمنى من قبل نفر كثير ، ولبثت دعواهم الباطلة تتردد أعواماً طوالاً ، وإنى لأخشاهم أكثر من هذا الرجل (أنيتس) وعصبته ، وإن كيدهم لعظيم ، ولكن أولئك الذين نهضوا اذ كنتم أطفالاً فملكوا ألبابكم بأباطيلهم لأشد من هؤلاء خطراً ، فهم يحدثونكم عمن يسمى سقراط أنه حكيم يسبح بفكره فى السماء ، ثم يهوى به الى الثرى ، وانه يخلع على الباطل رداء الحق . أولئك هم من أخشى من الأعداء ، فقد أذاعوا فى الناس هذا الحديث ، وما أسرع ما يظن الدهماء أن هذا الضرب من المفكرين كافر بالآلهة . كثيرون هم أولئك المدعون ، ودعواهم قديمة العهد ، نشروها حين كنتم فى سن الطفولة أو الشباب ألين انطباعاً . ولم يكادوا ينطقون بالدعوى حتى انطلقت تحمل عني فى ذيلها السوء دون أن تجد لها مفنداً . وأهول من ذلك كله أن لبثت أسماؤهم مجهولة لا أعلمها لولا ذلك الشاعر الهازل[1] الذى ساقته الظروف . وإنه لمن العسير أن أتحدث الى أشخاص هؤلاء الهجائين الذين نفذوا الى نفوسكم بما يحملون من ضغينة وحقد ، صدر فيها بعضهم عن عقيدة ، ثم ألقوا بذورها فى قلوب الآخرين ؛ فلا أستطيع أن أدعوهم الى هذا المكان لأستجيبهم ، فأنا ان دافعت الآن فانما أدافع أشباحاً ، وأستجيب حيث لا مجيب . وإنى لأرجو أن تقبلوا ما فرضته لكم من قبل بأن الأعداء صنفان : فطائفة حديثة العهد وأخرى قديمته ، وأحسبكم ترون صواب رأيى فى أن أبدأ بالرد على هذه الطائفة الأخيرة ، فدعواها أقدم عهداً وأكثر تردداً

وبعد ، فها كم دفاعى ، ولعلى أستطيع فى هذه البرهة القصيرة التى تفضلتم بها على أن أمحو شائعة السوء التى قرت عنى فى أذهانكم طوال هذا الزمن ، وعسى أن أصيب توفيقاً إن كان فى التوفيق خير لى ولكم ، ولعل كلماتى تصادف منكم قبولاً حسناً . فأنا عليم أنى مقدم على أمر عسير ، وانى لأقدر مهمتى حق قدرها ، فليقض الله بما يريد . وها أنذا أبدأ دفاعى طوعاً للقانون

واستهل الحديث بهذا السؤال : أى ذنب جنيت حتى حامت حولى الشبهات فاجترأ مليتس أن يرفع أمرى للقضاء ؟ ماذا يقول عنى دعاة السوء ؟ ها كم خلاصة ما يدعون : « قد أساء سقراط صنعاً ، وهو ظلمة يصعد البصر الى السماء وما تحوى ، ثم ينفذ به تحت أطباق الثرى ، وهو يلبس الباطل ثوب الحق ، ثم إنه يبث تعاليمه فى الناس » تلك هى جريرتى ، وقد شهدتم بأنفسكم فى ملهاة أرستوفان كيف اصطنع شخصاً أسماه سقراط جعله يجول قائلاً إنه يستطيع أن يسير فى الهواء ، وأخذ يلغو فى موضوعات لا أزعم أنى أعرف عنها كثيراً ولا قليلاً — لست أقصد بهذا أن أسىء الى أحد من طلاب الفلسفة الطبيعية — ولكن شد ما يسوؤنى

(١) يقصد بها الرأى العام

(١) يقصد به أرستوفان الذى مثل سقراط فى روايته « السحاب » أشنع تمثيل

أن يتهمني بها مليتس . أيها الأثينيون ! الحق الصراح أني لا أتصل بتلك الدراسة بسبب من الأسباب ، ويشهد بصدق قولي كثير من الحضور ، فاليهم أحتكم . انطقوا إذن يا من سمعتم حديثي وأنبئوا عني جيرانكم ، هل تحدثت في مثل هذه الأبحاث كثيراً أو قليلاً ؟ أنصتوا إلى جوابهم لتقطعوا بصدق مما يقررون

أما القول بأني معلم أتقاضى عن التعليم أجراً فباطل ليس فيه من الحق أكثر مما في سابقه ، على أني أمجد المعلم المأجور إن كان معلماً قديراً . فهؤلاء جورجياس الليونتي (Gorgias of Leontium) وبروديكوس الكيوسي (Prodicus of Ceos) وهبياس الاليزي (Hippias of Elis) يطوفون بالمدن يحملون الشباب على ترك بني وطنهم الذين يعلمونهم ابتغاء وجه الله ليسعوا اليهم ، فلا يؤجرونهم وكفى ، بل يحمدون لهم ذلك الفضل العظيم . ولقد أتاني نبأ فيلسوف من بارا يقيم في أثينا ، حدثني عنه رجل صادفته ، قد بذل للسوفسطائيين مالاً طائلاً ، هو كالياس بن هيبونيكوس . ولما أنبأني أن له ابنين سألته : لو كان ابناك يا كالياس حمارين أو بقرتين لما شق عليك أن تجد لهما مدرباً ، فما أهون أن تستخدم مدرب الخيول أو فلاحاً يقومهما ويبلغ بهما حد الكمال في حدود فضيلتهما ، ولكنهما إنسانان من البشر ، فمن ذا فكرت أن يكون لهما مؤدباً ؟ أتمت من يدرك فضيلة الانسان وسياسة البشر ؟ حدثني فلابد أن تكون قد تدبرت الأمر ما دمت والداً . فأجاب : « نعم وجدت . فسألته : من هو ذا وأين موطنه وكم يؤجر ؟ فأجاب هو أڤينس البارى وأجره خمسة دراهم » فقلت في نفسي : « أنعم بك يا أڤينس إن كنت تملك هذه الحكمة حقاً ، وتعلمها بمثل هذا الأجر الضئيل ، فلو كانت لدي لزهيت وأخذني الغرور ، ولكني بحق أيها الأثينيون — لا أعلم من تلك الحكمة شيئاً »

رب سائل منكم يقول : « وكيف شاعت عنك تلك التهمة يا سقراط إن لم تكن قد أتيت أمراً إدّا ؟ فلو كنت فرداً كسائر الناس لما ذاع لك صوت ولا دار عنك حديث . أنبئنا إذن بعلة هذا إذ يؤلمنا أن نحكم في غير صالحك » وإني لأحسب هذا تحدياً رقيقاً ، وسأحاول أن أوضح لكم لم دعيت بالحكيم ، ومن أين جاءتني الأحدوثة السيئة ، فأرجو أن تنصتوا لقولي ، ولو أن بعضكم سيظن بي الهزل ، ولكني أعترف أنني لن أقول الا الحق خالصاً . أيها الأثينيون ! إن لدي ضرباً معيناً من ضروب الحكمة ، كان مصدر ما شاع من أمري ، فان سألتموني عن هذه الحكمة ما هي ؟ أجبت أنها في مقدور البشر ، وإلى هذا الحد فأنا حكيم . أما أولئك الذين كنت أتحدث عنهم فحكمتهم معجزة فوق مستوى البشر ، لا أستطيع أن أصفها لأني لا أملكها ، ومن ظن أنها لدي فقد ظن باطلاً ، وكان أشد ما يكون بعداً عن حقيقتي . أيها الأثينيون ! أرجو ألا تقاطعوني ولو بلغت في القول ، فلست قائل هذا الذي أرويه لكم ، ولكني سأنيب عني شاهداً جديراً بالثقة ، ليحدثكم عن حكمتي — فسينبئكم هل أملك من الحكمة شيئاً ؟ وإن كنت أملك ، فما نوعها — وأعني بذلك الشاهد إلهه دلفي . إنكم ولا ريب تعرفون (شريفون) ، فهو صديقي منذ عهد الصبا ، وهو صديقكم مذ ظاهركم على نفي من نفيتم ثم عاد أدراجه معكم . كان شريفون كما تعلمون صادق الشعور في كل ما يعمل ، فقد ذهب الى معبد دلفي وسأل الراعية في جرأة لتنبئه — وأعود فأرجو ألا تقاطعوني — سأل الراعية لتنبئه إن كان هناك من هو أحكم مني ، فأجابت النبيّة أن ليس بين الرجال من يفضلني بحكمته . لقد مات شريفون ، ولكن أخاه ، وهو في المحكمة بيننا ، يؤيد صدق ما أروى

وفيم أسوق اليكم هذا الخبر ؟ ذلك لأني أريد أن أنقصي لكم علة ما ذاع عني من سوء الذكر . لما أتاني جواب الراعية ، قلت في نفسي : ماذا يعني الاله بهذا ؟ إنه لغز لم أفهم له معنى ! أنا عليم أن ليس لدي من الحكمة كثير ولا قليل ، فماذا عساه يقصد بقوله إنني أحكم الناس ؟ ومع ذلك فهو إله يستحيل عليه الكذب ، لأن الكذب لا يستقيم مع طبيعته . ففكرت وأمعنت في التفكير ، حتى انتهيت آخر الأمر الى طريقة أحقق بها القول . اعتزمت أن أبحث عمن يكون أحكم مني ، فان صادفته ، أخذت صوب نحو الاله لأرد عليه ما زعم ، فأقول له : « هاك رجلاً أكثر مني حكمة ، وقد زعمت أني أحكم الناس » . لهذا قصدت الى رجل من الساسة — ولا حاجة بي الى ذكر اسمه — فقد عرف بحكمته ، وامتحنته فانتهيت إلى النتيجة الآتية : لم أكد أبدأ معه الحديث حتى قرت في نفسي عقيدة لا تمحى بأنه لم يكن حكيماً حقاً ، على الرغم من شهادة الكثيرين له بالحكمة ، وعلى الرغم مما ظنه هو نفسه في حكمته ، وقد جاوز به الغرور شهادة